الرسالة الكيالية الطاهرية

إن خير ما نختم به هذا الكتاب تلك الرسائل المتبادلة بين الشيخ طنطاوى جوهرى والأستاذ الحسيب النسيب الشيخ طاهر ملاّ الكيالى الرفاعى رئيس العلماء بناحية (إدلب) من أعمال حلب الشهباء ونقيب السادة[1] .

ولقد وقعت فى يدنا تلك الرسائل مخطوطة ، إذ لم تتح لها فرصة النشر من قبل ، فرأينا – لطرافتها وفائدتها – أن نعرض بعضها فيما يلى مقدمين لمن وافانا بها ولأسرته الكريمة أجزل الشكر . .

الرسالة الأولى

باسمك يا منعم . .

وكان فضل الله عليك عظيما . .

سيدى حكيم العصر وبهجة الدهر ، أبقاك الله تعالى عوناً وغيثاً ليزيل عنا غبناً وعبثاً . بعد السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، شرفت بمطالعة كتابكم «نظام العالم والأمم» الجامع حقائق الحكم ، الشارح قول القائل :

ما الكون غير صحيفة الأقدار خطت ليتلوها ذوو الأبصار

كم من عظات ضُمنت مسطورها إن كنت جاهلها فأين القارى

والرامز لما روى عن المزنى أنه قال : «لما وافى الشافعى مصر قلت فى نفسى : إن كان أحد يخرج ما فى ضميرى وما تعلق به خاطرى من أمر التوحيد فليس غيره ؛ فصرت إليه وهو فى مسجد مصر ، فلما جثوت بين يديه قلت : إنه هَجَس فى ضميرى مسألة فى التوحيد ، فعلمت أن أحداً لا يعلم علمك ، فما الذى عندك ؟ فغضب ثم قال : أتدرى أين أنت ؟ قلت : نعم . قال : هذا الموضع الذى غرق فيه فرعون ! أبلغك أن رسول الله ﷺ أمر بالسؤال عن ذلك ؟ فقلت : لا . فقال : هل تكلم فيه الصحابة ؟ قلت : لا . قال : أتدرى كم نجوم السماء ؟ قلت : لا . قال : وكوكب منها تعرف جنسه وطلوعه وأفوله مم خلق ؟ قلت : لا . فقال : شىء تراه بعينك من الخلق لست تعرفه فتتكلم فى علم خالقه ! ثم سألنى عن مسألة فى الوضوء ، فأخطأت فيها ، ففرعها على أربعة أوجه ،

(١) وهو أيضاً والد الأستاذ سامى الكيالى كما سيأتى فيما بعد .

فلم أجب فى شىء منه ، فقال : شىء تحتاج إليه فى اليوم خمس مرات تدع علمه وتتكلم على علم الخالق ؟ . . إذا هَجَس فى ضميرك ذلك فارجع إلى الله تعالى وإلى قوله « وإلهكم إله واحد » والآية بعدها ، فاستدل بالمخلوق على الخالق ، ولا تتكلم على علم ما لم يبلغه عقلك . قال : فتبت » .

فإنك أيها السيد الجليل قد أوضحت بكتابك هذا البرهان بدلالة الصفة على الصانع ، والدنيا على الآخرة ، والآيات القرآنية على الآيات الكونية ، وجمعت بين المتفرقات ، وألّفت بين المختلفات ، فجزاك الله عن الأمة المحمدية خير جزاء . ولولا عجزى لضعف البصر لفضلت إقدامى على رأسى للسعى إليك والشرف بالمثول بين يديك ، فأنبت هذه عنى راجياً إتحافى بآثارك الشريفة وعلومك المنيفة ودعواتك اللطيفة ، وعلى مولاى السلام فى البدء والختام .

نقيب السادة بإدلب

١٦ من ذى القعدة عام ١٣٣٧ وخادم علمائها آل ملاّ الكيالى

طاهر ملاّ الكيالى

ملحوظة : سيدى ، إن بيتنا الكيالى ذكره السيد الزبيدى فى شرح القاموس فى آخر مادة « ك ى ل » . وأن السيد شعيب الكيالى الذى هو عمنا شيخه . . فلنا بأفاضل مصركم رحم آمل دوام مواصلتها .

الرد على الرسالة الأولى

القاهرة فى الأول من المحرم عام ١٣٣٨ (الموافق ٢٦ من سبتمبر عام ١٩١٩)

سليل المجد والشرف ورب الفضل والأدب ، خير الأماجد كابراً عن كابر ، الأستاذ طاهر نقيب الشرفاء وسيد العلماء :

تحية وسلاماً ، وإجلالاً وإعظاماً وشوقاً وتهياماً . أما (بعد) فأهلاً وسهلاً بمناط الجلال ، ومحتد الكمال ، وزينة الجمال ، وفخر العرب فى أشرف نسب . وصلت رسالة السيد حفظه الله ، فكانت قرة عين مزيلة الغين ، مذهبة الرين ، مبعدة الأين ، جالبة الأنس والبهجة برياض السرور الأرجة ، فقرأتها مرتين ، وأرجعت البصر كرتين ، وآنست فيها آيات الحكمة ودلائل العلم فكانت أحاديث سعد .

فيا سعد خبرنا بأخبار من مضى فأنت خبير بالأحاديث يا سعد

وقد جاء فى الكتاب أنكم قرأتم « نظام العالم والأمم » فوقع لديكم موقع القبول ، فقلت : « إنما يعرف الفضل من الناس ذووه » والحكمة أدرى بأهلها ، والقلوب أعلم بأمثالها . إن الله ملائكة

يسوقون الأشكال إلى أشكالها ، وليس يألف المرء إلاّ ما عرف ، والأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف ، وفى هذا الوجود آيات وفى قلوب هذا الإنسان بينات ، ولله فى الخلق دلالات . والعلم كالمطر لا يخرج النبت إلاّ حيث يطيب بلداً ، والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ، والذى خبث لا يخرج إلاّ نكداً . وعشاق العلم متجاورون وإن تباعدت الديار ، متحدون وإن اختلفت الأطوار . إن أقرب البعدين بعد الدارين ، وأبعد الدارين بعد القلبين . ثم عسى أن تتصل المكاتبات بيننا ، لأن ذلك أدعى إلى انتشار العلم فى سائر البقاع . وقد ورد الخطاب مؤرخاً بـ ١١ من ذى القعدة ووافى مصر فى أواخر شهر ذى الحجة ، هذا وتقبل منى التحية والسلام والإجلال والإعظام .

المحب المخلص

طنطاوى جوهرى

المدرس بالمدرسة الخديوية بمصر

الرسالة الثانية

باسمك يا حكيم

ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً .

سيدى الأستاذ الكبير . سلام عليكم بقدر شوق إليكم (وبعد) فقد ازدانت الديار وتنورت البصائر والأبصار ، وانشرحت الصدور ، وتعطرت المحافل بورود جواب سيدى الجوهرى ونشر خطابه العبهرى ، وإفادته إهداء كتاب الأرواح الذى أقيمت له قبل وصوله الأفراح ، المشير لما رواه من حديث الأرواح وسر مواصلة الرسوم مع تباعد الحدود .

ولو كانت الأقطار طوع إرادتى وكان زمانى مسعدى ومعينى

لكنت على شط الديار وبعدها مكان الذى قد سطرته يمينى

لأطوف حول كعبة اللطائف ومشعر المعارف ومنى الضيف وقبلة الصلاة . هذا وإنى بحمده تعالى مَشْغُوف بنشر عرف « نظام العالم والأمم » فى الدروس والنوادى الخاصة والعامة ؛ لأنه حدق انطبعت فيها المحاسن ، وحديقة أكلها دائم وسلسبيلها غراس . وقد أحسنتم كل الإحسان فى حكاية سيدنا إدريس مع إبليس ، فمحوتم نقطة الغين عن العين وجعلتموها مبصرة ، وأحكمتم التسديد فى سد يأجوج ومأجوج ؛ فلله دركم وما أحكم سدكم ! وقد كنت معجباً بما ذكره العلامة الألوسى فى تفسيره روح المعانى فى قصة السد فى رحلة صفوة الاعتبار ؛ فإنه أحكم فى أفواه الطاغين الرد . وحين رأيت تحقيقكم فى النظام زدت سروراً ، فجزاكم الله خيراً . وقد نورتم قلوب السلف بتنوير أقوالهم .

فلو رآكم الفخر لافتخر بتقديركم تفسيره أو الأستاذ ابن رشد لازداد رشداً ، أو العلامة ابن خلدون لتمنى أن يكون فى رياض مجالسكم مخلداً ، أو حجة الإسلام لنحا محجتكم ونسج غزله على منوالكم . وقد بعثم الهمم لمطالعة كتابه الذى قال فيه السيد العيدروسى : «من لم يطالع الأحيا لا يعد من الأحيا ، ومن لم يقرأ الأحيا ليس حيا ، ولو عاش الأموات ما أوصوا الأحياء إلاّ بما فى الأحياء» . أو الإمام الشافعى لسرّ بنشركم أقوال رسالته التى هى أول مصنف فى أصول الفقه : قال الإمام عبد الرحمن بن مهدى كتبت إلى الشافعى رضى الله عنه وهو شاب أن يضع لى كتاباً فيه معانى القرآن ويجمع مقبول الأخبار فيه وحجة الإجماع وبيان الناسخ من المنسوخ من القرآن والسنة فوضع لى كتاب الرسالة ، فما أصلى صلاة إلاّ وأنا أدعو للشافعى فيها .

قال الذهبى: وكان عبد الرحمن بن مهدى من كبار العلماء قال فيه أحمد بن حنبل : عبد الرحمن ابن مهدى إمام ؛ وقال يحى بن سعيد القطان حين عرض عليه الرسالة للشافعى : ما رأيت أعقل ولا أفقه منه ، وأنا أدعو له فى دبر كل صلاة لما فتح الله عز وجل عليه من العلم ووفقه للسداد إليه .

وقال عبد الرحمن بن مهدى لما قرأ كتاب الرسالة : ما ظننت أن يكون فى هذه الأمة اليوم مثل هذا الرجل ، أو أن الله خلق مثل هذا الرجل !

قال الربيع : رأيت الشافعى رضى الله عنه فى المنام ، فقلت : ما فعل الله بك ؟ قال : أنا فى الفردوس الأعلى . فقلت : بماذا ؟ فقال : فى كتاب صنعته ، وسميته كتاب الرسالة .

ولو سمع الشعرانى ثناءكم على العلا وابن رشد لرجع عما قاله من التحذير من مطالعة كتبه ، وجدير بمن يلقى سيادتكم أن ينشد :

ولقيت كل الفاضلين كأنما رد الإله نفوسهم والأعصرا

وقد وافانى الجواب المستطاب يوم عاشوراء فكان عيداً أكبر ، ويوماً أزهر ، وسرعة سيره وبطء خطابى برهان ظاهر على عجز الفقير طاهر وعلى التفاوت بين الهمتين ، والتباين بين العزيمتين ، وأما تأخر كتاب الأرواح فى البريد للآن فلأنه إن يكن كتاباً فى الاسم فإن الله سبحانه يبقيكم عالماً لهذا العالم ، وأبا ثانيا لبنى آدم والسلام ،

٢١ من المحرم عام ١٣٣٨ طاهر ملا الكيالى الرفاعى

* * *

باسمك يا حافظ

«فالله خير حافظاً ، وهو أرحم الراحمين» .

سيدى الأستاذ «الأوحد» المفضال ، حرسك مولاك وبعين عنايته رعاك . سلاماً وبعد ، فقد

وافانى الكتاب الباهى الباهر المؤرخ فى ١١ من ربيع الأول المبشر بسلامتكم التى بها سلامة الفضل والحكمة العالية ومعه الكتب الكريمة ومضمونه يومئ إلى استحسان ما فى «أين الإنسان ؟» على ما فى صحيفة ١٠٣ من «جمال العالم» ، وهذا التناقض الظاهرى برهان على أن العقل محتاج لميزان به يعرف صحيح الفكر من غيره ، كما قاله الإمام الغزالى ، وغيره حظره لما عليه الأشعرية من أن التحسين والتقبيح شرعيان لا عقليان ؛ لأن العقل قاصر عن إدراك جميع ما أتى به الشرع ؛ ولذا قال السيد جمال الدين الأفغانى فى الآستانة سنة ١٣١٠ هـ : إن النحو توجب مراعاته اتفاق الناس مع اختلاف ألسنتهم ومذاهبهم على رفع الفاعل ونصب المفعول مثلاً ، وأنا لم أر للمنطق فائدة فإن المناطقة منهم السنىّ كالرازى ، والشيعى كالطوسى ، والمعتزلى كالجبائى . وغيرهم لم يجمعهم المنطق على مذهب واحد ، فكيف تكون مراعاته عاصمة للذهن عن الخطأ فى الفكر . فقلت له : لو كان أرسطو حيا ما وسعه إلاّ اتباعك فى هذه الآلة . وأما ما ذكرته فهو غير دار كما لا يخفى ؛ فإن الطبيب عليه بذل العناية بما يوافق القواعد الطبية وليس عليه حفظ الحياة . على أن الخطأ قد يكون من اشتباه المشهورات الظنية باليقينات ؛ فإن أكل اللحم عند البراهمة قبيح وعند غيرهم حسن . فهذا من المشهورات ، لكنه عند الفريقين صار من اليقينيات فاستحسن ذلك . أقول : وممن أطنب فى تحريمه السيوطى فى كتابه وعقوده ، والعارف النابلسى فى شرح الطريقة ، وعلله بأنه يقوى الجزء العقلى على الجزء الإيمانى فيضعفه أو يذهب بالكلية «ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور»[١] . وقد قال الشيخ رسلان : «الناس تائهون عن الحق بالعقل» . صحيفة ٣٣٨ «جزء أول» وما ذكرت ذلك إلاّ لما أرى من هؤلاء الزاعمين أنهم أنصار الإنسانية ؛ فإنهم باتباعهم لأهوائهم التى تأمرهم بها أخلاقهم ونبذهم لما جاء به الأنبياء عليهم السلام استحكمت فيهم الهمجية والوحشية ! وقد قال الجد ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى «وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون»[٢] : إن انتظام العالم إنما يتم بالشرائع ، فلو عطلت والعياذ بالله تعالى كان تعطيلها الناس على ما يفنى الحرث والنسل ويخرب العالم ! أما عند خفاجى وغيره فإن الشرع العيسوى يقول : من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الخد الشمال . وأمر الشرع المحمدى بالعدل والإحسان إلى كل إنسان بل حيوان ، ونص على البر والإقساط بخصوص المخالفين فى الدين فقال : «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين»[٣] . والآن جاءنا متحدثو

---

(١) النور : ٤٠ .

(٢) البقرة : ١١ .

(٣) الممتحنة : ٨ .

الغرب يشوهون وجه الإنسانية ويوقعون الخلاف بين العناصر المتجاورة والمتحابة : «وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون»[١] .

وأملى دوام تبشيرى عن أحوالكم السارة . مخلصكم

٨ من ربيع الآخر عام ١٣٣٨ طاهر الكيالى

حاشية : يلثم أذيالكم الطاهرة ويطلب حسن رضاكم ودوام توجيهاتكم ودعواتكم الفاخرة من إدلب من أعمال حلب .

سامى بن طاهر الكيالى[٢]

* * *

---

(١) البقرة ١١ .

(٢) الأستاذ سامى بن طاهر الكيالى (١٨٩٨ - ١٩٧٢) .

كانت هوايته الأدب ودراسة التاريخ ، والرحلات . عمل فى الإدارة ، فكان أمين السر العام لبلدية حلب خمسة وعشرين عاماً ، ومفتشا إداريا عاما لبلديات المنطقة الشمالية . ومديراً لدار الكتب الوطنية ، ومديرا للمركز الثقافى العربى بحلب .

– شغل منصب مستشار ثقافى للوفد السورى فى اليونسكو .

– كان عضواً فى اللجنة الثقافية التابعة للجامعة العربية . ومحاضراً فى معهد الدراسات العربية العليا فى مصر ، وعضوا فى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية فى مصر وسورية . وعضواً فى مجمع اللغة العربية فى القاهرة .

– أصدر مجلة « الحديث » عام ١٩٢٧ ، وبقيت حتى عام ١٩٦٠ ، وكانت مرآة للحياة الفكرية المتجددة خلال هذه الفترة ، وتعتبر مجلة « الحديث » مرجعاً وثيقا للتيارات الأدبية والفكرية فى العالم العربى خلال هذه المدة . وكان كتابها من أعلام رجال الفكر والتجديد ، فى طليعتهم الدكتور طه حسين والدكتور محمد حسين هيكل وإسماعيل مظهر ، ومصطفى عبد الرازق ومحمود تيمور وتوفيق الحكيم والدكتور إبراهيم ناجى وغيرهم ...

– له أكثر من ٢٨ كتابا مطبوعاً منها : « نظرات فى التاريخ والنقد والأدب » ، و « الفكر العربى بين ماضيه وحاضره » و « مع طه حسين » (ثلاثة أجزاء) و « يوميات عربى فى أمريكا » و « النفس الإنسانية فى أدب الجاحظ » و « من خيوط الحياة » ، و « الحكيم شهاب الدين السهروردى » و « أمين الريحانى » .

– توفى مساء الخميس ١٧ من فبراير عام ١٩٧٢ على أثر مرض عانى من آلامه عدة أشهر .

– وكان الفقيد فى ذلك الحين عندما كتب تذييله السابق لخطاب والده يبلغ الحادية والعشرين من عمره .

وهنا تبدأ :

الرسالة الكيالية الطاهرية

١

حيا الله الطلعة الطاهرية ، شمس العزة الكيالية ، وبدر الشريعة الإسلامية ، وزين العلماء . وفخر الكبراء ؛ فلقد أرانا من آياته العجب العجاب ، وطفقت تدخل العلوم عليه من كل باب . وأشرفت عليه شمس المعارف ، فنال منها التالد والطارف . وإنى لمدين لآياته ، مغتبط بكتاباته . وكأنى حينما رميت بالدواة والقرطاس ، ونبذت محادثة الجلاس ، وآنست بوحدتى ، ولزمت غرفتى قيض الله له الرسائل الطاهرية ، والبينات الكيالية ؛ لتنير ما بطن ، وتبرز ما كمن :

وهيج وجدى بعد ما كان نائماً براد الضحا مَشْغُوفة بالترنم
فلو قيل مبكاها بكيت صبابة بسعدى شفيت النفس قبل التندم
ولكنْ بكت قبلى فهيج لى البكا بكاها فقلت : الفضل للمتقدم

فلقد ورد فى كتاب السيد المؤرخ فى ٨ من ربيع الآخر سنة ١٣٣٨ أن ما جاء فى كتاب (جمال العالم) يناقض ما فى كتاب (أين الإنسان؟) على ما فى صفحة ١٠٣ من (جمال العالم) . وهذا التناقض الظاهرى برهان على أن العقل محتاج لميزان به يعرف صحيح الفكر من غيره كما قال الإمام الغزالى وغيره ، ثم خطره لما عليه الأشعرية من أن التقبيح والتحسين شرعيان لا عقليان ؛ لأن العقل قاصر عن إدراك جميع ما أتى به الشرع . أقول : ما ألطف جعل السيد التناقض ظاهريا ! يريد أن يحثنا على تبيان حقيقته وباطنه حتى لا نخالف أهل التحقيق ، ولا نبعد عن الحق فى مكان سحيق ، فلذلك ألفت هذه الرسالة ، وأسميتها «الرسالة الكيالية الطاهرية» ؛ ليقابل لفظها معناها ، ويوافى مدلولها مبناها ، وكما أن الماء طهارة من الخبائث الجسيمة ، كذلك الحجة طهارة من خبائث الزيغ العقلية ، ولأقدم مقدمة فأقول :

٢

القول فى تقسيم الحكمة ، وفى الخير والشر

إن قارئ الحكمة عليه أن يقدم المنطق لئلا يضل السبيل ويحيد عن الصراط المستقيم ، والحكمة قسمان : علمية وعملية ؛ والعلمية فيها الرياضى والطبيعى والعلم الإلهى ، والعلمى يشمل أدب الإنسان فى نفسه وسياسته مع أهل منزله وسياسته مع أمته ، والعلم الإلهى فى الحكمة يضاهى علم التوحيد فى الشريعة ، وكل يمجد الله وثَبَّتَ له جميل الأفعال وشريف الصفات وأبهج الأخلاق جل جلاله وعز كماله وبهر سلطانه . فترى أهل الحكمة يقولون فى كتاب الإشارات لابن سينا : إن هذا العالم منظم حسن جميل بهج سائر على المنهج الأتم ، ولو لم يكن كذلك لكان كله شرا ، والشر لا يكون من العاقل ، فكيف بمن هو واهب العقول ومبدع الأصول ؟ . . ويقولون : إن الأشياء لا تعدو الخير المحض والشر المحض وما يتركب منهما ولا رابع لها بمقتضى القسمة العقلية : أما الشر المحض فالحكمة لا ترضاه ، والعلم يأباه والوجود لا يحويه والله لا يأبه به ، والخير المحض وهو عالم الأرواح لامرية فى وجوده ولا نزاع فى بقائه ، وأما ما غلب خيره على شره كالشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب والناس فإن حكمة الحكيم توجب وجوده ، ومن العبث والخطل أن يظل معدوماً . وجلّت حكمة الحكيم أن تضن بما غلبت خيراته وعمت بركاته ؛ ولهذا وضعنا كتاب « جمال العالم » تثبيتاً للعقائد وتبييناً لحكمة الله جل جلاله ؛ فلقد يحار العقلاء فى هذا العالم : لم خلق الله الحيات والعقارب ، وذرأ الذئاب والثعالب ، وسلط النمور والأسود على الخرفان والأرانب ؟ ولم ظلم الحاكمون وجار الظالمون وبطش الباطشون ، وأغار الأقوياء على الضعفاء وغلبت الروم فى أدنى الأرض ثم من بعد غلبهم يغلبون ؟ ولم كان النظام الحيوانى والإنسانى مغموراً فى حمأة الرذائل . وإن عذاب ربك لواقع ماله من دافع ؟ ولم كان كل ما تمتعنا به نفحة من عذاب جهنم حتى نهى الله نبيه أن يمد عينه إلى ما متع به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا ؟ وقال : « ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا »[1] فصار أعظم النعم فى الحياة عذاباً وأهم المبرات فى الدنيا خيالاً ! . .

---

(١) التوبة : ٨٥ .

غير مُجدٍ فى ملتى واعتقادى نوح باكٍ ولا ترنم شاد
وشبيه صوت النعى إذا قيـ ـس بصوت البشير فى كل ناد
أبكت تلكم الحمامة أم غنت على فرع غصنها المياد

فكان مدار كتاب «جمال العالم» القضاء والقدر ؛ ليكون الإيمان باليقين ولا جرم أن مسألة الحرب بالقنا والسيف والمدافع الجبلية والمناطيد الهوائية والعمارات البحرية والمركبات الكيميائية يحار العاقل فيها ولا يدرى ماذا يقول فيها ؟ وإذا كان الله قد أنزل فى كتابه «بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم» وورد فى الحديث أن الله أرحم بعبده المؤمن من هذه بولدها يشير إلى امرأة فى السبى كانت ترضع كل طفل لا مرضع له – إذا كانت هذه صفات الرحمن الرحيم وفى بنى آدم الذين استمدت رحمتهم من رحمته من لو أمكنه أن يسع البرايا لفعل – فكيف تكون إذن صفات من براه وصوره ؟ ولا جرم أنه ليس يمكن أن يكون الوصف فى المخلوق أجل ولا مماثلاً له فى الخالق ! وإذا كانت هذه كلها ثابتة نقلاً وعقلاً فكيف يتصور أن يكون هناك ظلم فى الأرض وقسوة وشدة ؟ فكان لابد فى كتاب (جمال العالم) من الحكمة الإلهية العالية ؛ فلقد استبان فيه الحكمة وأنها لا تخرج عن دائرة الرحمة الواسعة التى وسعت كل شىء .

٣
ضرب أمثال لما تقدم

الطب . . فللطبيب أن يقطع العضو من المريض ليدرأ عنه المرض ، ويزيل عنه الداء ، ويجلب إليه الشفاء . أوكمثل الأب الذى يرغب فى تعليم ولده وإن كانت الأم تأبى ذلك وتود لو يبقى ابنها فى بيتها ملازماً لها حبا له وغراماً به . فمثل الناس كمثل الأم يظنون الحرب نقمة وهى من الله نعمة ، بها يتنافسون ويتسابقون ويجدون ويجتهدون ، ويستفيقون من غفلتهم ، بل الأم التى سكنت واستنامت واطمأنت وغفلت واستقرت على فراش الراحة الوثير تألف الذل .

فإذا أوقد الله نار الحرب بينهم وبين غيرهم نشطوا من عقالهم وقاموا يصلحون ما أفسده الدهر ، وظلوا فى أعمالهم مجدين ، أولئك هم المفلحون . وقد يكون المرض والفقر للأفراد داعياً حثيثاً لاستئناف سعادتهم ونبذ شقاوتهم وذهاب فقرهم ؛ فكل مرض وفقر وحرب وحاجة تدعو حثيثاً إلى مزاولة الأعمال والمبادرة إلى المحافظة على الصحة والمال والعمل والاستقامة والدوام فى الرقى الاجتماعى : فما مثل الله مع المرضى ومع الفقراء ومع بعض الأمم الضعيفة إلاّ كمثل الأب البار المشفق

الرحيم العاقل الحكيم الذى أرسل ابنه إلى المدرسة وأنساه الراحة وألزمه المكتب ! ولعمرك إن الألم لا يكون إلاّ على مقدار الحاجة : ألا ترى كيف كان ظاهر الجسد بوضع الإحساس والشعور والحواس الخمس ، وفقدت الأعضاء الباطنة أكثر الإحساس ، ولم يكن للنبات ألم لأنه لم يعط قدرة على دفعه ، مع أن له من الإحساس والشعور ما به يعيش ؟ وما مثل الناس فى نظراتهم إلاّ كمثل الأم لا ترضى براحة ابنها بديلاً لقصر نظرها وقلة عقلها ! ولقد قال أرسطوطاليس للإسكندر فى رسالة : «إياك وأن تنيم الأمة على بساط الراحة فتهلك حرثهم ونسلهم ! ولكم من أمة أهلكت لما أمنت واطمأنت ! فإن الناس لا يحملون الراحة ، ولكنهم أقدر على احتمال الشدائد . إنهم عند الشدائد لقادرون وهم عند الراحة هالكون» .

* * *

إننا فى كتاب «جمال العالم» ننحو هذا النحو من العلم ونقول : إن الحرب نعمة بل إنها باب من أبواب الرحمة الإلهية الواردة فى الحديث الشريف : «إن لله مائة رحمة ادخر تسعاً وتسعين منها لعباده المؤمنين فى الآخرة وألقى منها واحدة فى الدنيا ، فيها تتراحم الخلق حتى إن الفرس لترفع حافرها عن ولدها خيفة أن يصيبه» أو كما قال . هذا الذى نحونا نحوه فى كتاب «جمال العالم» .

٤

كتاب « أين الإنسان ؟ »

أما فى كتاب «أين الإنسان ؟» فإنّا قد نظرنا نظرة فى العالم الإنسانى فألفيناه على هذه الحال ، لم يزل كالصبي فى زمن المراهقة ، كما قال كاتب أمريكى ؛ فهو لا يزال يتخبط فى بحور الظلام وخبائث الأوهام . يتراكض هو والصبيان فيرجع وقد انكسرت ساقه أو جدعت أنفه أو شرخ رأسه أو فقئت عينه أو كسرت سنه . فهو أبداً دائم العراك ، ضعيف الإدراك ، قليل الأدب ، كثير النصب والتعب . ووجدت أن هذه الحال ليست هى الغاية القصوى ولا الآية الكبرى ، فلو أنها استبدل بها خير منها لكان أهدى سبيلاً وأقوم قيلاً وأقرب مثالاً وأعلى مناراً ! فلكم انقرضت من الوجود أنواع من الحيوان وجاء على آثارها ما هو أنفع للإنسان ! وكم من علوم انقرضت وظهرت فى أثرها علوم ! ولقد رأيت رأس حيوان فى المتاحف المصرية التقطوه من بقايا الآثار التى عثروا عليها فى الفيوم إذ هى كالقبة الكبيرة . ويقولون : إن متاحف العالم كله ليس فيها نظير هذا الحيوان الذى ليس له نظير فى الأرض اليوم ! فإذا ما انقرض هذا الحيوان كما هو الواقع وكان غيره أصلح فهل تقول : إن وجوده لم

يكن لحكمة أو تقول : إن حكمةوجوده كحكمة خلق نوع يخلفه فى الوجود . فهكذا هنا تقول : إذا كانت الحروب القائمة والجيوش الجرارة والمناطيد الهوائية والمدافع والجنود والسيوف والبنود لحكمة ارتقاء الإنسان فلا مانع يصدنا عن القول بأن هناك نظاماً أعلى ومقاماً أرقى ، وذلك بأن نهذب الطريقة وتكون الحقيقة ، ولا توجه الحرب للمطامع الحيوانية بل للسعادة الإنسانية ، كما فعلت الرسل الكرام . وإذا كان الناس اعتادوا أن يجعلوا الحرب للطعام كالأنعام فهل ارتقوا إلى ما هو أشرف بأن العز عصبة قوية من الأمم جميعاً . ومن حسن النية وإخلاص الطوية جعل الحرب محصورة فى دائرة مقفلة وإدارة مخصوصة ، ذلك خير وأحسن تأويلاً . وإذا نحن أحببنا لعب الطفل وأبحناه بل أوحيناه وجعلناه شعار القوة والنبل والنباهة وحرمنا حصر حركاته ونسبنا إليها كل ضعف وهزال فيه — فإن تعليمه الأدب لتنظيم حركاته . . والثبات فى أعماله من أشرف المطالب وأقوم المسالك ؛ فهكذا لعب الإنسان بالحرب بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير ، فإذا أبصر رشده وعمل جهده فى نبذ تلك النزعات وتعلم الأدب وأخذ يلم شعثه ويقضى على ما كان من السيئات فقد استبدل الذى هو خير بالذى هو أدنى . كما استبدل حركات الطفل الجنين باللعب . وكما نذر آلات الحرث والحلج القديمة ونستبدل بها خيراً منها وهى تلك الآلات التجارية للحرث والطحن والبناء والنسيج وما أشبه .

٥

عجائب الله فى العقول والوحى

وإجمال ما فصل هناك ، وإزالة التناقض فى الكتابين وتفصيل الكتاب لمن أرادوا تفصيلاً هو أن عجائب الله عز وجل كما تكون فى الشرائع والديانات تكون على ألسنة العلماء وقلوب المفكرين ، قل كل من عند الله ، فإن ثبت أن الوحى المنزل على الأنبياء ، والحكمة المنزلة على الكتاب بتوفيق إلهى ، وروح سماوى ، بل النفوس الشريرة البشرية يتنزل على أفئدتها الوسواس من الأنفس المفارقة المشاكلة لها فى الملأ الأعلى ، وذلك كله من العجب العجاب والاستعداد البشرى الغريب الذى يتراءى كلوح يقبل كل ما يقابله من الصور فيظهرها ويجليها . فالنفوس تقبل ما تناسبها من العقول ، وتنشر ما استعدت له من العلوم . ولقد تجلى لى عند تأليف كتابى « جمال العالم » هذا الإنسان وهو فى دور مراهقته فأيدنا حربه وأبنا سرّ الله فيه وفصلناه تفصيلاً . فلما أن مضى نحو عشر سنين تبدى لى العالم بشكل مرجف وهيئة مزعجة ، ورأيت أن هذا النظام وإن كان مشمولاً بالحكمة ، مرموقاً بعين الرحمة ، مغروساً فى أرض الفضل الإلهى — فوقه ما هو خير منه وأبقى ، وأشرف وأعلى ، فألفت

كتاب «أين الإنسان ؟» ولم أكن إذ ذاك بصدد الذى يظهر الحكمة الإلهية فى العلم الإلهى ولا الذى يريد تثبيت العقائد وتفصيل الحقائق وإزالة الصدأ عن الأذهان ؛ فذلك كنا قد فرغنا منه وانتقلنا إلى الحكمة العملية كما أسلفنا ، ولا جرم أن الحكمة العملية موضوعها نفوس الناس من حيث أخلاقها وآدابها ونظامها ، فرأيت أن أضع لهم أحسن نظام وأجمل أسلوب بحسب طاقتى البشرية وفكرتى الإنسانية ، وفوق كل ذى علم عليم .

هذا بيانى فى هذا المقام عسى أن تقبله الأفهام .

٦
القرآن والعلوم

ولقد ورد فى القرآن مايكاد يتبين للناظر فيه أنه مشكل متناقض ، فإذا ألقيت عليه أشعة الشمس العلمية جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا . . ألم تقرأ قوله تعالى : « إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » . وقوله : « يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم » فأمر عليه الصلاة والسلام بالسلم أولاً وبالحرب آخرا ، ولاتناقض لتباين الحالين وتباعد الأمرين ، الضعف والقوة . ولقد ذم الله المال ولكن مدحه ﷺ كما فى البخارى فقال : « نعم عون المؤمن إذا ما أعطى منه الفقير والمسكين وابن السبيل » أوكما قال : فالذم باعتبار والمدح باعتبار آخر . وقال تعالى فى صفة الذات العلية « ليس كمثله شىء » ، وقال « يد الله فوق أيديهم » ودل الفصل على نفى الجسمية عنه تعالى : فسّر العلماء حال اليد إلى التنزيه وأولوها بالقدرة وإرجاع مافى النقل إلى العقل إذا استحال . والنقل إذا قام البرهان القطعى على نقيضه أول ليوافق العقلى ، والشرائع ماعرف صدقها إلاّبعقولنا . فإذا نبذت تلك الشرائع المعقولات فقد نقضت أصلها وهو العقل ، ومالا أسّ له فهدوم ، ومالا أصل له فضائع ، فيخر شفق العقائد فوقها وينهار بناؤها على عروشها . ولما كانت هذه حال الشرائع السماوية ، وإنها لابد لها من عقول مرشدة ونفوس نيرة وآراء صائبة وعلوم مرشدة لتبين مانزل للناس بالوحى وكان الاختلاف فيها واقعا لاعتياص الدلائل وتنافر الظواهر عند الذين لايعلمون – نزل قوله تعالى « يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا ومايضل به إلاّالفاسقين » . فكان القرآن بنص الآية سببا لضلال قوم لايعقلون ونوراً لقوم يفقهون . فإذا سمعوا آيات اللين فى موضعها وإذا قرءوا آيات الشدة أثبتوها فى مكانها . ولو أن الناس فسّروا الدين ولم يعقلوا أساسه لضلوا سواء

السبيل ، ولذلك نقلت فى كتابى « التاج المرصع » عن الإمام الغزالى أن من يأخذ العلم من ظواهر الكتاب والدين ينسل من الدين انسلال الشعرة من العجين ، لأنه يقف عند الظواهر ولايقفو أثر الحقائق ، فيكون فى شك مبين ، ويكون الضلال والوبال . فأما المفكرون والحكماء فإنهم يجعلون لكل مقام مقالا ؛ إذ يتشبثون ويتثبتون الحقائق ويبنون المواطن ثم يجعلون لكل آية محملاً « فلآية السيف حال ولآية السلم حال » .

تم الكتاب